مركز باحث للدراسات الفلسطينية والاستراتيجية

التقدير نصف الشهري

تحليل للتطورات السياسية والأمنية في «إسرائيل»

www.bahethcenter.net
Email: baheth@bahethcenter.net
bahethcenter@hotmail.com

باحث للدراسات
الفلسطينية والاستراتيجية

تحليل نصف شهري للتطوّرات السياسية والأمنية في «إسرائيل»

أهداف المركز الرئيسية:

١ ــ إعادة فلسطين إلى موقعها الحقيقي كقضية مركزية للأمة.

٢ ــ الترويج للقيم الجهادية والنضالية في إطار استراتيجية تحرير فلسطين.

٣ ــ بناء علاقة متينة مع النخب والشخصيات المعنية بالقضية الفلسطينية.

٤ ــ إصدار دراسات وأبحاث وتقارير ذات بعد استراتيجي وتحليلي.

الحرب الباردة بين إسرائيل وحزب الله: إلى أين؟

مدخل

إنّ حكاية العداء بين حزب الله وإسرائيل هي حكاية من العداء التاريخي والعقائدي المقدّس التي لامكان للصلح فيه على الإطلاق. وهذا يعني أنّ الصراع بينهما مستمرّ ودائم إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً. وقد سبق لأمين عام حزب الله سماحة السيد حسن نصر الله أن أعلن مراراً أنّه لو بقي وحده في هذه المواجهة لظلّ يقاتل هذا الكيان المجرم الغاصب حتى آخر نفس. فالصراع بالتالي ليس صراعاً يمكن حسمه فى جولة أو جولتين من حرب طالت أو قصرت، بل هو صراع تتنوّع فيه الأدوات والوسائل والأطراف والإرادات المتوفّرة لدى طرفي المواجهة في كلّ مرحلة من المراحل. وهو يمكن أن يكون على شكل حروب نظاميّة بين جيوش دولتين أو أكثر، كما حدث فى حروب الأعوام ١٩٥٦ و١٩٦٧ و١٩٧٣، ويمكن أن يكون بين جيش الإحتلال وتنظيمات المقاومة المسلّحة على مختلف أنواعها. ومن هنا جاءت الحرب الأخيرة على لبنان في تمّوز ٢٠٠٦. فمنذ أن إنسحبت إسرائيل من جنوب لبنان عام ٢٠٠٠ ، وهي تشعر بالمذلّة والمهانة من أن حزباً سياسيّاً يحمل السلاح الخفيف دفاعاً عن أرضه وشعبه قد إستطاع أن يقف بوجه جيش يقول عن نفسه أنّه "جيشٌ لا يُقهَر"، وأنّه يستطيع إحتلال لبنان بفرقته الموسيقيّة، وأن يسبّب صُداعاً دائماً فى رأس كل من يتولّى الحكم فى إسرائيل منذ إجتياح عام ١٩٨٢. ومنذ ذلك الحين إزدادت القوّة المعنويّة والتسليحيّة لحزب الله، في الوقت الذى إزداد فيه القلق من تنامي هذه القوّة لدى الصهيونيّة العالميّة وقادة العدوّ. غير أنّ هذا القلق كانت تتمّ معالجته في عقول الحكّام الصهاينة بأنّه توجد قابليّة للقضاء عليه بوسائل "القوة الخشنة" المتوفّرة حتى التخمة لديهم، فهذه الوسائل هى الطريقة الوحيدة التى يفهمها هؤلاء القادة منذ أن بدأ التفكير فى زرع كيانهم السرطاني الإستيطاني بالإستعانة بقوى الإستعمار السابقة والحاليّة، والتي كثيراً ما نجحت فى تحقيق أهدافها، إلاّ أنّ الأمر إختلف كلّياً عام ٢٠٠٦ ولم يستطع قادة العدوّ أن يديروا معركة القوّة، ولا أن يحقّقوا أهدافهم السياسيّة والإستراتيجيّة منها.

لقد دخلت إسرائيل تلك الحرب وهى تعتقد أنّها منتصرة لا محالة، فليس هناك مقارنة تُذكَر بين آلة الحرب وآلة الإعلام والدعم السياسي والدبلوماسي والمالي الذي تتمتّع به وبين ما يتوفّر لدى الحزب الذي ظنّوا أنّه مهما يبلغ من قوّة فلن يستطيع الصمود أمام جبروتهم وكيدهم أيّاماً معدودات. وبالرغم من أنّ هذا العدوان كان مُبيّتاً من قبل، وينتظر التوقيت المناسب لشنّه للقضاء على حزب الله والمقاومة، فإنّ الحزب فاجئ الجميع، وهذا جزء من نجاحه، فصاحب المبادرة دائماً هو المُنتصر، ومن يقوم بردّ الفعل غالباً ما يكون أداؤه أقلّ من المُتوقّع. وهذا ما كانت إسرائيل تستخدمه دائماً فى صراعها مع العرب، فكانت تضعهم دائماً في موقف ردِّ الفعل والدّفاع المستمرّ، ولكن هذه المرّة أخذ الحزب زِمام المبادرة وترك الأعداء في موقف ردِّ الفعل، ومع ذلك هم توقّعوا أو بالأحرى توهّموا أنّ بوسعهم تحقيق النصر بسهولة، ولذلك قاموا بشنِّ الحرب بعد يومين فقط من إختطاف الأسيرين الإسرائيليين. وقد دارت رحى الحرب لمدّة ثلاثة وثلاثين يوماً، فى حين كانت إسرائيل تعتقد أنّها لن تتجاوز عدّة أيّام، وكان كل يوم يمرّ على هذه الحرب يكبّد إسرائيل مزيداً من الإخفاقات والفشل والخسائر الماديّة والمعنويّة على كلّ المستويات.

على ضوء تلك التجربة يُطرَح السؤال: كيف خسرت إسرائيل الحرب على لبنان عام ٢٠٠٦؟ وهل تعلّمت الدروس المستفادة من المواجهة؟ إنّ الجواب على ذلك يمهّد الطريق أمامنا للإستدلال على حيثيّات المستقبل وإحتمالات تطوّره.

جدليّة الحرب وعدم الحرب

من المُسلّم به أنّه عندما فكّر قادة العدو في شنّ الحرب على لبنان عام ٢٠٠٦، إنّما كانوا يريدون التلويح والمُباهاة بذراع إسرائيل الطويلة القادرة على حماية وتأمين السكّان المستوطنين المجلوبين من دول العالم المختلفة إلى "أرض الميعاد" المفترض أنّها آمنة، والتي – بفضل المقاومة – لم تعد آمنة. صحيح أنّ الجيش الإسرائيلى إستخدم وسيستخدم الطائرات الأمريكيّة الحديثة فى هدم العمارات وقتل المدنيين، واستخدم الأسلحة المحرّمة دوليّاً، لكنّه لم يخرج من تلك الحرب سليماً. فقد كانت صواريخ حزب الله وهمّة رجاله، من أهمّ العناصر في إسقاط الأسطورة، وفضح الغرور الإسرائيلي المُبَالَغ فيه.

لقد كان قرار دخول الحرب عام ٢٠٠٦ من الجانب الإسرائيلي، وكذلك سيكون في المستقبل، ذا أهداف جيوسياسيّة وإستراتيجيّة واضحة. فمع أوّل أيّام الحرب أعلن رئيس الوزراء الإسرائيلي "إيهود أولمرت" أنّ الحرب لها هدفان رئيسان: الأوّل: إستعادة الجنديين الأسيرين. الثانى: نزع سلاح حزب الله وطرده إلى ما بعد الليطاني، وفرض معادلة سياسيّة جديدة على مستوى السلطة والمجتمع في الداخل اللبناني تؤدّي إلى عزل الحزب وإسقاط هيبته وشلّ قدراته السياسيّة والعسكريّة. وإذا كانت هذه هي الأهداف الدائمة والمُعلَنة من قادة العدو وحلفائه في الداخل والخارج، فإنّ هناك قائمة أخرى من الأسباب التى لم يعلنوها. فلبنان هو البلد العربيّ الوحيد الذي إتّسمت مواجهته مع العدوّ الإسرائيلي بالطابع "الشعبى"، أي أنّ الشعب هو الذي تولّى مهمّة المواجهة بعد عجز الدولة وتقييدها إقليميّاً ودوليّاً في أدائها منذ العام ١٩٧٨، على قاعدة المعادلة الذهبيّة الثلاثيّة التي كرّستها وفرضتها المقاومة الإسلاميّة اللبنانيّة (الجيش والشعب والمقاومة).

ونظراً لتركيبة لبنان المعقّدة، ووجود قوى سياسيّة متعدّدة من مختلف التيّارات الطائفيّة والمذهبيّة والسياسيّة، إضافةً إلى وجود الفصائل الفلسطينيّة، ومنظّمة التحرير الفلسطينيّة في وقتٍ من الأوقات، جعل للصراع مع إسرائيل طبيعة خاصّة فى لبنان، أدّت إلى إكساب قوى المقاومة اللبنانيّة الخبرة السياسيّة والعسكريّة والأمنيّة اللازمة للإستمرار فى إدارة الصراع. ومع خروج منظّمة التحرير الفلسطينيّة، إثر الإجتياح الشامل للبنان عام ١٩٨٢، بدأت تنتقل قيادة المقاومة المسلّحة تدريجيّاً إلى زعامة لبنانيّة إسلاميّة تمثّلت فى الحزب الوليد آنذاك "حزب الله". وعندما تزعّم حزب الله المقاومة المسلّحة ضدّ إسرائيل، وعبر سنوات متعدّدة، قاد خلالها حرباً شرسة لإخراج الإحتلال، والتي تمّ تتويجها بالفعل بخروج إسرائيل من الشريط الحدودي في جنوب لبنان ما عدا مزارع شبعا عام ٢٠٠٠ ، فخلال هذه الفترة ساعدت المتغيّرات الإقليميّة والدوليّة حزب الله على عقد تحالف إستراتيجي مع كلٍّ من سوريا وإيران، خاصّةً بعد أن أثبت الحزب جدارته فى ميدان المواجهة السياسيّة والعسكريّة والأمنيّة مع إسرائيل، ممّا مكّنه من الحصول على الدعم السياسي والمالي والعسكري من هذه الدول تثبيتاً له أمام عدوٍّ يستمدّ قوّته ودعمه المالي والعسكري والسياسي من قوى كبرى مثل الولايات المتّحدة الأمريكيّة وكافّة الدول الغربيّة ومن قوى عربيّة وبعض

قوى الداخل اللبناني. في المقابل تمكّن حزب الله من أن يتسلّح بأعتدة عسكريّة متطوّرة نسبيّاً، وبالإضافة إلى طبيعته الإيديولوجيّة وسياجه الأمني الذي يصعب إختراقه، وسلوك عناصره الذى يتّسم بحسن الخلق وصدق الموقف، إستطاع أن يصمد فى وجه إسرائيل وحلفائها.

إنّ أنفاق غزّة، وموجة العمليّات الإستشهاديّة في الضفّة، وعمليّات داعش الوحشيّة والحرب الكونيّة في سوريا، وتعاظم قوّة وقدرة حزب الله ومستقبل المشروع النووي في إيران، وعدم إستقرار الحكم في مصر وفي الأردن، كلّ هذه هي مجرّد نماذج من التحدّيات والمخاوف التي ترافق في السنوات الأخيرة عقل وقلب إسرائيل، وهي جميعها تخضع لميزة بارزة أساسيّة هي إنعدام اليقين. مع ذلك يمكن بحسب مصادر متابعة، إستخلاص إحتمالين لناحية إحتمالات السلم والحرب: الأوّل هو أن تستغلّ إسرائيل ضائقة "حزب الله" الحاليّة في سوريا، والغطاء الدولي الذي تعد نفسها به، خاصّةً مع مجيء ترامب في واشنطن، لشنّ عمليّة عسكريّة ضدّه لتقليص قدراته العسكريّة، فيما الإحتمال الثاني يُفيد بأنّ إسرائيل لا تريد سوى التهويل بالحروب، بينما تريد أن يبقى الوضع على الجبهة مع حزب الله على ما هو عليه خصوصاً أنّ الحزب مُنهمك في سوريا، وهناك شبه ضمانة لأن تبقى الجبهات هادئة معه.

هل من حرب باردة بين إسرائيل والحزب؟

قد نظنّ للوهلة الأولى أنّ توصيف الوضع القائم بين حزب الله وكيان العدوّ بـ"الحرب الباردة" قد صدر على لسان أحد قادة حزب الله أو مؤيّديه، لكن الحقيقة أنّ من أطلقه هو قائد المنطقة الشماليّة في جيش العدوّ، اللواء "غادي أيزنكوت"، خلال لقائه مع رؤوساء السلطات المحليّة حيث قال: "أساليب حزب الله تذكّر تقريباً بالحرب الباردة التي كانت في أوروبا" مضيفاً أنّ "الردع المتبادل ينتج توتّراً كبيراً".

لا يمكن للمراقب أن يتجاوز ما يحمله هذا التوصيف، سواء من جهة ما ينطوي عليه من مضامين تتّصل بموازين القوى المستجدّة ومآلات الوضع السياسي والأمني أو من الجهة الصادر عنها، وما تمثّله من موقع يؤهّلها لإعطاء التوصيف الدقيق كونها على اطّلاع تامّ بحقيقة ما يملكه الجيش الإسرائيلي من قدرات وخيارات عملانيّة.

إلى جانب ما تقدّم، يُلاحَظ أنّ هذا التوصيف أتى بعد معادلة الردع الجديدة التي أعلنها سماحة الأمين العام لحزب الله السيد حسن نصر الله، من حيث تكافؤ حدّة القصف والتدمير، والتي شكّلت مُنعَطفاً حادّاً على مستوى معادلة المواجهة في لبنان والمنطقة. وما يضفي على هذا الموقف مزيداً من الأهميّة الخاصّة والإستثنائيّة هو أنّه صدر عن الشخص نفسه الذي هدّد بتعميم "عقيدة الضاحية" على بقيّة المناطق اللبنانيّة في أي مواجهة مُقبِلة، عبر إتّباع سياسة الأرض المحروقة والتدمير الشامل التي طبّقها الجيش الإسرائيلي خلال حرب تموز في العام ٢٠٠٦، في الضاحية الجنوبيّة مع إضافة إستهداف البنى التحتيّة للدولة اللبنانية. لذلك يمكن الجزم، من جهة المضمون، أنّ موقف "أيزنكوت" يشكّل إقراراً مباشراً وواضحاً وصريحاً بالقيود التي إستطاع حزب الله فرضها على حركة الجيش الإسرائيلي سواء من موقع المبادرة أو ردّة الفعل، ومن ورائه على قيادته السياسيّة، لدى دراسة خياراتها ومن ضمنها إمكانيّة شنّ حرب على لبنان و/أو سوريا أو حتّى توجيه ضربة عسكريّة محدودة تحت أيّ عنوان هنا وهناك.

ولمزيدٍ من الإيضاح، من المعلوم أنّ الحرب الباردة في أوروبا، كانت سائدة بين المعسكرين الشرقي والغربي، أي بين حلف وارسو وعلى رأسه الإتّحاد السوفياتي ومن الجهة المقابلة الحلف الأطلسي (ناتو) وعلى رأسه الولايات المتّحدة. وعليه فإنّ المقارنة في المضمون والتوصيف بين تلك المعادلة وما هو قائم بين حزب الله والجيش الإسرائيلي في الوقت الراهن يشكّل إقراراً بوجود ردع مُتبادل حقيقي. ويمكن القول إنّها المرّة الأولى التي يصدر فيها هذا التوصيف على لسان قائد عسكري بهذا المستوى، وهو في الخدمة. ويُلاحَظ أيضاً أنّ هذا المصطلح قاله أيزنكوت لرؤوساء السلطات المحليّة، خلال مناورة "نقطة تحوّل -٤" التي يُفترض أنّها تعبير عن جهوزيّة الجبهة الداخليّة، الذين طالبوه بضرورة توجيه رسالة واضحة إلى الجمهور الإسرائيلي لطمأنته بأن لا مؤشّرات على حربٍ وشيكة. وللوهلة الأولى يتبادر إلى الذهن أنّه كان يُفترَض بقائد المنطقة الشماليّة، في أجواء المناورة الكيانيّة الكبرى بهدف بثّ الطمأنينة وسط الجمهور، أن يُقلِّل أو يُشكّك بجدّيّة وقدرة حزب الله على تنفيذ تهديداته في حال تجرّأ الجيش الإسرائيلي واستهدف البنى التحتيّة والمنشآت الإقتصاديّة في لبنان. لكن المفاجأة كانت أنّه بدلاً من ذلك أقرّ بوجود ردع متبادل حقيقي بين حزب الله والجيش الإسرائيلي عبر إقراره بوجود حرب باردة مع الحزب.

في ذكرى العاشر من محرّم الأخيرة العام الماضي، توعّد أمين عام حزب الله سماحة السيد حسن نصر الله المحتلين الإسرائيليين بأنّهم لن يجدوا مكاناً آمناً على إمتداد فلسطين لا تصل إليه صواريخ الحزب، في المقابل أتى الردّ الإسرائيليّ الأقوى على لسان وزير المواصلات يسرائيل كاتس، الذي هدّد بإرجاع لبنان إلى العصر الحجري. والواضح أنّ هذه التصريحات والمفاهيم إنّما تنطوي على مغزيين أساسيين هما: سريان الحرب الباردة والردع، ممّا يعني ميدانيّاً تبريد الجبهات وتأجيل المواجهة. ويُلاحِظ أكثر المراقبين حاليّاً، أنّ من مصلحة الطرفين، الإبقاء على الهدوء النسبي السائد منذ إنتهاء حرب تموز ٢٠٠٦، وذلك لاعتبارات كثيرة أهمّها:

أ- جمّد العدوان الإسرائيلي الأخير على غزّة أي تفكير من قِبَل الصهاينة في شنّ حرب على لبنان. فطوال مدّة الحرب (٥١ يوماً) فشلت فكرة الحسم العسكري السريع. وما لقيه لواء النخبة "غولاني" في حيّ الشجاعيّة فرض على إسرائيل إعادة النظر والتفكير مليّاً بمفهوم الإجتياح البرّي الذي توعّدت لبنان به في الحرب المقبلة.

ب – ترى إسرائيل في دخول حزب الله الرمال السورية، فرصةً كبيرةً لاستنزافه، واستنزاف إيران من ورائه، وإدخاله في أتون حرب مذهبيّة، تعود بالفائدة على إسرائيل في شتّى المجالات. لذلك هي تفضّل حاليّاً مراقبة النيران المشتعلة من بعيد، مع شيء من التدخّل الإستخباراتي الخفيّ والإستنسابي.

ج – حزب الله يرى في حالة اللاحرب واللاسلم القائمة مع العدوّ الصهيوني، فرصة لزيادة جهوزيّته في مختلف الميادين. فيعمل على مراكمة خبراته وقدراته. وهو بدوره يفضّل الإبتعاد عن أيّة مواجهة فوريّة وشاملة مع الإسرائيليين في وقتٍ يقاتل فيه على أكثر من جبهة.

د – يدرك الفريقان حجم التدمير الهائل والمُتبادل في الحرب المقبلة. ويدركان غياب اليقين حول كيفية نهايتها، ممّا يجعلهما يؤجّلانها قدر المستطاع.

في المقابل تتعاقب الصحف الإسرائيليّة بين حينٍ وآخر على توجيه رسائل تهديد مُبطّنة إلى سكّان الجنوب اللبناني وتحديداً ما يُعرف بمنطقة الشريط الحدودي، وذلك ضمن خطّة حرب نفسيّة تتوزّع فيها

الأدوار بين مُهدّد بتدمير المنازل وإحراق الأرض، وبين تشريد الأهالي وتحويل قراهم إلى حـزام أمنـي يستعيد من خلاله العدوّ الإسرائيلي زمام حماية مستوطنيه ومستوطناته. لكن في المقابل لا يشـعر زائـر الجنوب عموماً، سابقاً ولاحقاً، بحملة التهديدات التي تشنّها الصحف الإسرائيليّة ضدّ الجنوبيين الذين يقولون "إنّ هذه التهديدات لا تتعدّى حدود التهويل، وحتى وإن صحّت فنحن عشنا أسوأ الحروب ورأينا من هـذه الدولة المتغطرسة ما لم يره أحد في العالم، ولذلك نحن جاهزون لمواجهة أيّة حماقة يمكن أن يرتكبها هذا العدوّ حتى ولو كلّفنا الأمر أرواحنا وأرزاقنا".

سقوط الرهانات الإسرائيليّة

البعد الأوّل للفشل المتكرّر للتقديرات الإستخباراتيّة الإسرائيليّة في شتّى الحروب مع حزب الله، أنّـه قزّم صورتها المضخّمة التي يتعمّد العدوّ عادةً تظهيرها، من دون إنكار القـدرات والأجهـزة والكفـاءات والخبرة التي تتمتّع بها. وكان قد بدأ مسلسل النكسات مع فشل التقدير الشهير الذي صال وجال به في حينه وزير الأمن الإسرائيلي إيهود باراك، عندما جزم أنّ ليس أمام الرئيس الأسد سوى عدّة أسابيع. وساندته في ذلك وحدات التقدير في الإستخبارات العسكريّة(أمان). لكن الواقع هو أنّه بعد مُضيّ نحو ستّ سنوات من المواجهة الشرسة والوحشيّة خرج الرئيس الأسد ومؤيّدوه أكثر ثباتاً.

كذلك فشلت الإستخبارات الإسرائيليّة في تقدير أصل تدخّل حزب الله في سوريا. ولهذا الفشل ركائزه التي تتّصل بالنظرة الإسرائيليّة إلى حزب الله وقدراته. بعبارةٍ أخرى كان هناك قصور إسرائيلي في فهـم رؤى حزب الله وتقديراته وخياراته الإستراتيجيّة في هذا المجال. وإمتداداً لهذا المسار، فشلت الإستخبارات الإسرائيليّة أيضاً في تقدير مفاعيل تدخّل حزب الله، (بعد حصوله)، على الساحة السورية، وهو أمرٌ مفهوم خاصّةً إذا ما استندت في هذا التقدير إلى القياس بين حجم حزب الله وعديده وبين مساحة سـوريا وحجـم الجماعات التكفيريّة والإرهابيّة وعديدها.

أيضاً، فشلت الإستخبارات الإسرائيليّة في تقدير وتوقّع أصل التدخّل الروسي في وقتٍ مبكرٍ (ولا عبرة في تقديره قبل أيّام من حصوله بعدما اتّضحت مؤشّراته العلنيّة).. ولهذا الفشـل أيضـاً علاقـة بـالنظرة

والتقدير الخاطئ المتّصل بالموقف الروسي، وإزاء مستوى التنسيق مع الجمهوريّة الإسلاميّة وسائر حلفاء الدولة السوريّة.

كذلك، فشلت "المؤسّسة الإسرائيليّة"، بما فيها الإستخبارات، في تقدير مفاعيل التدخّل العسكري الروسي – الجوّي والصاروخي – إلى جانب الجيش السوري وحلفائه الذين حقّقوا إنتصارات (بريّة مفصليّة شكّلت صدمة لكلّ الجهات المُعادية، وتحديداً تحرير مدينة حلب. ومن أبرز من استبعد تحقيق مثل هذه المفاعيل رئيس أركان جيش العدوّ غادي أيزنكوت، خلال كلمةٍ له في كانون الثاني ٢٠١٦، أمام مؤتمر معهد أبحاث الأمن القومي، إذ تناول في حينه ما اعتبره تراجعاً للجماعات المسلّحة المُعادية للنظام السوري في بعض الأماكن، بعد التدخّل العسكري الروسي. ولكنّه أضاف: "رغم تدخّل الدولتين العظميين، اللتين تشكّلان المفتاح لنجاحات عملانيّة والتوصّل إلى إتّفاق فيما يخصّ الأزمة السوريّة، يوجد صعوبة كبيرة أمام تحقيق إنجازات عسكريّة فعليّة في المعارك". ولم يكن هذا الإستبعاد يستند إلى إعتقاد بمحدوديّة فعاليّة سلاح الجوّ الروسي أو الصاروخي، وإنّما كان يرى أنّ حجم وإستمرار تدفّق الجماعات المسلّحة وقدراتهم التسليحيّة، كافية كي تمنع الجيش السوري وحلفاءه، من تحقيق إنجازات جوهريّة بريّة.

لكن في المقابل، أتى تحرير مدينة حلب ليُثبِت مرّةً أخرى خطأ وفشل تقديرات المؤسّسة العسكريّة والإستخباراتيّة في تل أبيب. ومن المؤكّد أنّ هذا الإنجاز كان له وقع المفاجأة والصدمة على صنّاع القرار الإقليمي والدولي ومن ضمنهم إسرائيل.

في كلّ الأحوال، العزاء الوحيد للإستخبارات الإسرائيليّة في هذا المسلسل من التحوّلات والمفاجآت، أنّ الفشل في الرؤية والتقدير لم يقتصر عليها فقط، بل شمل كافّة أطراف المحور المُعادي لمحور المقاومة، بمن فيهم الولايات المتّحدة وأوروبا وصولاً إلى تركيا والسعودية وقطر.

وممّا يفاقم من المغازي والأبعاد التي ينطوي عليها هذا الفشل الممتدّ على سنوات، أنّه يتّصل بالساحة الأكثر أهميّة بالنسبة لصنّاع القرار في تل أبيب كونها تؤثّر بشكلٍ مباشرٍ بمن توصّفه المؤسّستان العسكريّة والسياسيّة، كتهديدٍ إستراتيجيّ، حزب الله والجمهوريّة الإسلاميّة في إيران.

وكما أنّ الفشل في التقدير الإستخباراتي هو محطّة قد يترتّب عليها مواقف وخيارات بما يتناسب معه، كذلك هو تتويج لقصور في الفهم الصحيح لما يستند إليه التقدير الإستراتيجي الصادر مؤخّراً. بعبارةٍ أخرى، مشكلة أعداء حزب الله ومحور المقاومة أنّهم لم يبلغوا حتى الآن المرحلة التي تمكّنهم من إدّعاء الفهم الناضج الذي يجنّبهم المفاجآت والصدمات.

الحزب في الجبهة السورية

يرتبط المسار السياسي أو بالأحرى الصراع العسكري لإيجاد حلّ سياسي للحرب الكونيّة التي تُشَنّ على سوريا والمقاومة، على نحو وثيق بالتجاذب حول مستقبل موقع الرئيس السوري بشار الأسد وموقع المقاومة الإسلاميّة في أيّ تسوية مقبلة باعتبارهما رمز المواجهة الإقليميّة والدوليّة الدائرة منذ خمس سنوات على الأرض السوريّة بهدف القضاء على أيّ أثر من آثار الممانعة والمقاومة العربيّة والوطنيّة في المنطقة لإسرائيل والنفوذ الغربي وخاصّة الأميركي، وصولاً إلى وضع اليد الغربيّة والصهيونيّة على منطقة الشرق الأوسط جيوسياسيّاً وجيوستراتيجيّاً. ولا شكّ بأنّ الدولة العبريّة تنظر إلى ما هو أبعد من الحلّ في سوريّة، لأنّها تُركّز على إيران، التي تعتبرها العدوّ الأوّل، الذي يُشكّل خطراً حقيقيّاً على أمنها القومي والوجودي، وبطبيعة الحال يحلّ حزب الله اللبناني في المرتبة نفسها من الخطورة، بصفته رديفاً لطهران، على حدِّ تعبير المصادر الأمنيّة في تل أبيب. وقد توقّع ضابط إسرائيلي رفيع المستوى توجيه ضربة إسرائيليّة إستباقيّة للحزب واصفاً إيّاه بـ"العدوّ الأكثر قوّة" في مواجهة إسرائيل. ونقل موقع "ديفينس نيوز" الأميركي عن الضابط قوله "إنّ حزب الله لم يتوقّف ليومٍ واحدٍ عن بناء قوّته ونحن لا نريد الإنتظار لليوم الأوّل من الحرب، فهو يواصل الإستعداد للمواجهة المُقبلة مع إسرائيل ممّا يزيد من إحتمال حصول حرب خاصّة إذا ما رأت إسرائيل ضرورة للقيام بعمليّة إستباقيّة". كلام الضابط هذا تزامن مع صدور التقدير الإستراتيجي عن مركز أبحاث الأمن القومي لإسرائيل لعام ٢٠١٦ -٢٠١٧ والذي خلص إلى أنّ حزب الله لا يزال يتصدّر سلّم التهديدات بالنسبة لإسرائيل تليه كلٌّ من إيران وحركة حماس. وبرّر المركز تقديره بـ " إمتلاك الحزب، إلى جانب الإرادة، صواريخ دقيقة أكثر فتكاً من السابق تصل إلى كل المديات، وطائرات من دون طيّار هجوميّة وإنتحاريّة، وصواريخ ساحل- بحر متطوّرة، ودفاع جوي من

أفضل الصناعات الروسيّة، ووحدات بريّة مدرّبة على السيطرة على مستوطنات في إسرائيل". في الوقت نفسه أشار التقدير بوضوحٍ إلى أنّ تنظيم "الدولة الاسلامية"- داعش، لا يُشكّل خطراً داهماً على الدولة العبريّة في المُستقبل المنظور، لا من الجبهة الجنوبيّة (سيناء)، ولا من الجبهة الشماليّة (مُرتفعات الجولان).

وجاء في التقرير أنّه على إسرائيل أن تحرص على منع نشوب مواجهات عسكريّة والعمل على الحدّ من مخاطر إندلاعها. وفي ما يتعلّق بحزب الله تحديداً، إحتمال التصعيد والمواجهة مبني على مساعي إسرائيل لإحباط تزوّده بالسلاح وإعتراض شحنات نقله، وكذلك محاولاته التمأسس عسكريّاً وإقامة قواعد عسكريّة في الجولان، وهي محاولات قد يُكتَب لها النجاح خلال الحرب القائمة في سوريا، وأيضاً في حال إنتصار واضح للرئيس السوري بشار الأسد. ولهذا السبب، بحسب التقدير، يجب على إسرائيل أن تدرس دوريّاً سياستها في مجال منع نقل السلاح إلى الحزب والتخفيف من إحتمالات المخاطرة بحصول تصعيد، وفي الوقت نفسه، مواصلة جمع المادّة الإستخباريّة عن حزب الله ومكوّناته العسكريّة، كي تكون قادرة على توجيه ضربة مُسبقة قبل إندلاع المواجهة المُقبلة، أو خلال فترة قصيرة جدّاً من لحظة إندلاعها. وعلى إسرائيل أيضاً الإستعداد لإجراءات تُتّخذ ضدّ البنية التحتيّة اللبنانيّة وعدم تمييزها عن حزب الله، على أن تكون جزءاً من المساهمة في الحسم العسكري والإستراتيجي. وأفاد التقرير أيضاً أنّه خلافاً للماضي، يجب على إسرائيل أن تدرك أّن توجيه ضربات إلى حزب الله في لبنان قد يجرّ إيران إلى مواجهتها، حيث تتمركز قوّاتها وقوّات حليفة لها في سوريا. ونتيجةً لوجودها هناك، ستكون إسرائيل مقيّدة جرّاء تواجد قوّات روسيّة في سوريا، مع توفّر غطاء حماية منظومات الدفاع الجوي الروسي التي تغطّي أيضاً الأجواء اللبنانيّة والإسرائيليّة على السّواء، وكل ذلك في موازاة التعاون الإستخباري الإستراتيجي بين روسيا وحزب الله.

وبالتالي فإنّ تعزيز مكانة المحور الراديكالي في سوريا، بدعم روسي، بحسب التقدير، يوجب على إسرائيل أن تعمل برؤية بعيدة المدى، وفي أساسها إزالة تهديد هذا المحور في الساحة الشماليّة. وعليها أن تساهم بشكلٍ فاعلٍ، لكن مدروس جيّداً، لإفشال هذا المحور، ومنع نقل سلاح نوعي إلى حزب الله في

لبنان، وتدفيع حزب الله ثمن أي إضرار بها، مع منع التموضع المُعادي على حدودها، إضافةً إلى مواصلة المساهمة في الدعم الإنساني للسكّان "السنّة المعتدلين"، خلف الحدود مع سوريا. ويستخلص التقـدير بـأنّ السيناريو الأفضل بالنسبة لإسرائيل هو في إسقاط نظام الرئيس الأسد، وبطبيعة الحال إبعاد إيران وحزب الله عن سوريا. كما أنّ من مصلحة إسرائيل، بحسب التقدير، إلحاق الهزيمة بتنظيم "داعش" على أن يُقـام في موازاة ذلك "نظام معتدل" في سوريا، تماماً كما يتحقّق هذا المنحى، وإن بشكلٍ مصغّرٍ، في الجـولان، حيث ينجح المتمرّدون في مواجهة الأسد و"داعش". لكن هذا السيناريو، الأفضل لإسرائيل، لا يبـدو أنّـه سيتحقّق ولم يعد معقولاً في ظلّ التدخّل الروسي والإيراني في المعركة القائمة هناك. بتعبيرٍ آخر لابدّ من التشديد على أن تَعزّز المحور الراديكالي في سوريا، الذي تقوده إيران وروسيا بالتعاون مع حزب الله، يعدّ من ناحية إسرائيل تطوّراً إستراتيجيّاً سلبيّاً، وعليها دائماً بالتالي أن تعمل على بلورة خيارات تهدف إلـى إضعاف هذا السيناريو ومنع نشوئه، رغم الدعم الروسي له.

ويشير التقدير إلى أنّ الواقعة وقعت خلال هذه السنة، عندما عاينـت المؤسّسـة الأمنيّـة والجـيش الإسرائيلي كيف نجا (الأمين العام لحزب الله السيد حسن) نصر الله من المستنقع السوري، وواصل نقـل السلاح النوعي من إيران الى مخازنه في لبنان وبات متسلّحاً بسلاح كاسر للتوازن. وهـذه هـي المـرّة الأولى، منذ بدء تعاظمه العسكري، التي تنظر إليه إسرائيل على أنّه تهديد حقيقي، والقادة العسكريون فـي إسرائيل توقّفوا منذ زمنٍ بعيدٍ عن إحصاء كميّة الصواريخ الهائلة، وانتقلوا إلى تصنيف الصواريخ بحسب نوعها. فلدى حزب الله اليوم سلاح دقيق، يمكنه أن يضرب كل نقطة على خريطة إسرائيل. ولديه قدرات تردع سلاح الجوّ الإسرائيلي، مع طائراته المتملّصة، وتردع سلاح البحريّة، مع سفن الصواريخ لديه، كما تردع سلاح البرّ.

وفي الوقت الذي تعلّم فيه الجيش الإسرائيلي تعاون كل الأذرع لديه في المعركة، ففي المقابل جمـع حزب الله خبرة عملانيّة قتاليّة لا مثيل لها حتى لدى أفضل المقاتلين في الجيـوش النظاميّـة. إلا أن ثمّـة أمرين هامين أدركهما جيداً الجمهور الإسرائيلي هما: الأوّل أنّ الجيش الإسرائيلي يستعدّ للواقعة الفظيعـة

ويعمل على إبعاد المواجهة قدر الإمكان. والأمر الثاني أنّ الجبهة الداخليّة غير جاهزة وكل شيء سوف ينهار.

بناءً على ما تقدّم، فإنّ إضعاف وإستنزاف حزب الله هو الهدف الرئيس المرحلي لإسرائيل، خصوصاً وأنّ الحزب بات بحسب وزير الأمن الإسرائيلي، أفيغدور ليبرمان، أقوى عسكريّاً من عدّة دول في حلف شمال الأطلسي (الناتو)، والهدف الثاني هو إضعاف إيران ومنع بسط سيطرتها وهيمنتها على الشرق الأوسط، الأمر الذي يتساوق مع مصالح الدول العربيّة المُصنفّة إسرائيليّاً بالدول "السُنيّة المعتدلة"، وفي مُقدّمتها المملكة العربيّة السعوديّة، وربمّا هذا هو التفسير للتقارب الإستراتيجي بين الرياض وتل أبيب وعددٍ من دول الخليج، إضافة لكلٍّ من مصر والأردن.

إن المُتتبّع للشؤون الإسرائيليّة يُلاحظ أنّ أركان دولة الإحتلال لا يُدلون بتصريحاتٍ مُباشرةٍ عن أهداف تل أبيب في سوريّة، ولكن من يقوم بهذه المُهّمة هي مراكز الأبحاث الصهيونيّة، المُرتبطة عضويّاً بالمُستويين الأمني والسياسي في تل أبيب. فعلى سبيل الذكر لا الحصر، صدر عن رئيس مركز أبحاث الأمن القومي، الجنرال في الإحتياط عاموس يادلين، الرئيس الأسبق لشعبة الإستخبارات العسكريّة (أمان)، موقف واضح ومباشر من الحلول المطروحة لسوريا، والتوصية حولها، حيث أكّد، بكلّ وضوح بأنّ الرئيس الأسد يجب أنْ يرحل (وبالتالي أن يرحل كل من يؤيّده معه). وشدّد في مقالٍ نشره على موقع المركز على أنّ عمليّة إعادة تشكيل المنطقة التي بدأت قبل خمس سنوات ونيّف، ترتبط بمصالح إسرائيل الإستراتيجيّة الأساسيّة التي ترى أن من مصلحتها منع تعزيز قوّة الإيرانيين وحزب الله، في الشرق الأوسط الجديد، مُوضحاً أنّه بالميزان الإستراتيجي، يُعدّ رحيل الرئيس الأسد مصلحةً إسرائيليّةً واضحةً، إذ إن تعزّز المحور الراديكالي الذي تقوده إيران ويمرّ عبر الأسد إلى حزب الله، هو التهديد الأكثر حضوراً على أمن الدولة العبريّة ووجودها، بحسب قوله. ولفت إلى أنّه من دون التقليل من خطورة (الدولة الإسلامية)– داعش، إلّا أنّ معالجة محور طهران – بغداد – دمشق – بيروت، يجب أنْ يحظى بالأولويّة الإستراتيجيّة، وذلك لسببٍ بسيطٍ وهو: واقع تجنّد المجتمع الدولي لمواجهة داعش، بل وأيضاً التمكّن من وقف تقدّمه.

وأكّد يادلين على أنّ معالجة داعش من دون إسقاط إدارة الرئيس الأسد، يعني إبقاء إسرائيل وحدها بلا مساعدة في وجه محور طهران – الأسد – نصر الله، مع التشديد على أنّ خطر إيـران وحلفائهـا علـى إسرائيل، يفوق خطر داعش بعشرات الأضعاف، بحسب وصفه. ويؤكّد يادلين أنّه انتهى الزمن الذي كـان يمكن لإسرائيل مراقبة ما يحدث في سوريّة وأنْ تتمنى النجاح للمتحاربين، إذْ يجب عليها الآن ألّا تضـيّع فرصة إضعاف أعدائها الأكثر صلابة، مُشدّداً على ضرورة أنْ يعرف العالم أنّ إسرائيل كانت إلى جانـب وإلى يمين "أهل السنّة"، لدى بذل الجهد لإزالة وإسقاط الرئيس الأسد. كما دعا يادلين صنّاع القرار في تل أبيب إلى وضع إستراتيجيّة عمل متعدّدة الطبقات، ضمن تحالف إقليميّ، حتى من دون أنْ يكون معلناً، مع السعودية ودول الخليج وتركيّا والأردن ومصر، بالإشتراك مع واشنطن، وأيضاً بالتفاهم السريّ مع روسيا، التي، بحسب رأيه، لا ترى الرئيس الأسد عنصراً أساسيّاً من عناصر التسوية المستقبليّة لسوريّا، كل هـذا من أجل التصدّي للموقف الإيراني، مع التأكيد على أنّ "الدول السُنيّة" في المنطقة تجمعها بإسرائيل مصالح متداخلة، في مواجهة المحور الراديكالي المُعادي، على حدِّ قوله.

وحدّد يادلين عدّة نقاط من شأنها أن تشكّل إستراتيجيّة شاملة، تؤدّي لإضعاف المحـور الراديكـالي، وإسقاط الرئيس الأسد وهي: تشجيع الخطوات السياسيّة الضاغطة على إدارة الرئيس الأسـد، والمسـاعدة على تقديم مسؤوليها إلى المحاكم الدوليّة بشأن دورهم في الحرب، (ويمكن لإسرائيل أنْ تساهم فـي ذلـك عبر توفير معطيات ذات صلة) على حدِّ قوله، والدخول في حوار مع واشنطن بشأن إسـتهداف الركـائز الأساسيّة لنظام الرئيس الأسد في سوريّا (البنية التحتيّة والقدرات الرئيسة). وأضاف أن من المهم أنْ تبدو إسرائيل بأنها تملك مبادئ أخلاقيّة، وتقدم على أعمال عسكريّة محدودة، تعمد إلى تدمير المروحيّات التـي تلقي بالبراميل المتفجرّة، ومثل هكذا إجراء سيؤدّي إلى توجيه رسالة جيّدة، كما يمكن تنفيذ هـذا العمـل العسكريّ من دون الدخول في معركة جويّة على نطاقٍ واسع.

لقد تراجعت إسرائيل عن تبنّي خريطة منسوبة للجيش الإسرائيلي تتضمّن ما قيل أنّها مواقـع وبنيـة تحتيّة وأسلحة تابعة للحزب في قسم من جنوب لبنان والبقاع الغربي. ويأتي تراجُع إسرائيل هذا في أعقاب تداعيات لم تكن ملحوظة لدى قرار النشر، الذي كان يهدف إبتداءً إلى ردع حزب الله، الذي، كما فهمت تل

أبيب، تعامل مع الخريطة كإشارة عن سعيٍ منها لبناء مشروعيّة إعتداءٍ واسعٍ أو حربٍ في مواجهته، الأمر الذي لم يكن كما يبدو في حساباتها الإبتدائيّة. وبحسب الإعلام العبري، فإن نشر الخريطة كان ضمن مسعى إسرائيلي يرمي إلى ردع الحزب عن التفكير في ردود فعل معتبرة على إعتداءاتها المتكرّرة في الساحة السوريّة. ونشر إعلام إسرائيل أنّ الخريطة «التي رُفعت السريّة عنها»، هي «خطوة محسوبة» من قبل القادة العسكريين الإسرائيليين لتقديم أدلّة في حال تنفيذ أيّ نشاط عسكري إسرائيلي في المستقبل، إذ إنّ «مَوضَعَة قدراته (حزب الله) على الخريطة تعدّ رادعاً له». إلاّ أنّ الناطق باسم الجيش الإسرائيلي، قلّل من أهميّة الخريطة، لافتاً إلى أنّها «مجرّد رسم توضيحي»، وذلك في تراجع يبيّن أنّ إرادة الردع الموجّهة إلى حزب الله من خلال توضيع الأهداف، إرتدّت ردعاً لصاحبها. وكانت وسائل الإعلام العبريّة قد ركّزت على هذه المنحى التراجعي تحديداً وطالب معلّقوها بضرورة إجتناب المغامرات التي من شأنها أن تُفضي إلى مواجهة مع حزب الله وسوريا. وأشارت صحيفة معاريف إلى أنّ «إستهداف السلاح والذخيرة في سوريا المنسوب لإسرائيل، هو جزء من سياسة مواجهة مستمرّة بلا أفق سياسي. وهي سياسة لا تقلّص الخطر من الشمال، بل تقرّبنا من الحرب المقبلة»، لافتةً إلى أنّ الهجمات تكون صحيحة من ناحية عسكريّة وسياسيّة فقط إن كانت تهدف إلى إحضار حزب الله وسوريا ضعيفين إلى مفاوضات حول ترتيبات بعيدة المدى في الشمال. أمّا الهجمات، وحدها، فلا تعني شيئاً وهي ليست هدفاً إستراتيجيّاً أو تكتيكيّاً لذاتها، وقالت الصحيفة : «إذا قمنا باستهداف مستودعات عسكريّة فهي لن تضرّ سوريا ولا حزب الله. وبشكل عام، عندما تقرّر دولة مثل سوريا أو منظّمة هي نصف دولة مثل حزب الله، التسلّح بسلاح متطوّر، وبحسب ليبرمان «كاسر للتوازن» مثل منظومات دفاع جوي أو الصواريخ البعيدة المدى، فهناك ألف طريقة وطريقة للوصول إلى سلاحٍ كهذا».

وبالنسبة لسوريا وحلفائها، خاصّةً حزب الله، فإن المنعة التي باتوا يتمتّعون بها في ظلّ التطوّرات الميدانيّة والنجاحات التي يحقّقونها تِباعاً في مواجهة الإرهابيين وحلفائهم، مع وجود المظلّة العسكريّة الروسيّة في سوريا، قد باتت تشكّل عامل ردع حقيقي بوجه حسابات العدوان الصهيوني. الأمر الذي دفع المعلّقين الإسرائيليين، الأمنيين والسياسيين، إلى التحذير من أنّ «فترة الصمت» السوريّة إقتربت من

النهاية، ما يعني ضرورة الحذر والتفكير بوسائل بديلة عن الإستهداف الموضعي الذي لا يغيّر كثيراً من ميزان القوى بين إسرائيل وحزب الله، مع تنامي قدراته العسكريّة النوعيّة، رغم الضربات التي تلقّاها. وفي سياق ذلك، يمكن التوقّف أمام تصريحات متتالية لوزير الأمن الإسرائيلي، أفيغدور ليبرمان، حول «سعي إسرائيل إلى منع وصول أسلحة دمار شامل وسلاح كيميائي» إلى حزب الله في لبنان. وهي تصريحات تُشير بدورها إلى إدراك إسرائيلي بأنّ جدوى ما يجري إستهدافه لا توازي المغامرة بالدخول في مواجهة لأجله.

الحرب الأمنيّة البديلة

في الوقت الذي تقلّ فيه ظرفيّاً حظوظ نشوب الحرب الساخنة، تستعر في المقابل بين الطرفين الحرب الأمنيّة الإستخباراتيّة. فمنذ ١٢ شباط ٢٠٠٨، اغتيل الشهيد الحاج عماد مغنية قائد الجناحين الأمني والعسكري لحزب الله، فإسرائيل كانت تتّهمه بالتخطيط لعشرات العمليّات ضدّها كتفجير السفارة الإسرائيليّة في بيونس إيرس، في الأرجنتين، في ١٧ آذار ١٩٩٢، بعد سنة على إغتيال الأمين العام الأسبق للحزب سماحة السيد عباس الموسوي. وقد أقسم سماحة السيد نصر الله بالثأر من العدوّ الاسرائيلي. وبالفعل جرت بضعة حوادث أمنيّة في عددٍ من الدول الأوروبيّة والآسيويّة وصفتها إسرائيل بمحاولات ثأريّة ردّاً على إغتيال الشهيد مغنية.

وفي شباط ٢٠١٢، إتّهمت إسرائيل حزب الله وإيران بالوقوف وراء سلسلة العمليات التي إستهدفت دبلوماسييها في تايلند والهند وجورجيا. أمّا التطوّر الأبرز فكان إتّهام بلغاريا لعناصر من حزب الله بالوقوف وراء تفجير حافلة سياحيّة كانت تقلّ إسرائيليين في بورغاس.

لم تبقَ إسرائيل مكتوفة الأيدي أمام محاولات حزب الله. في كانون الأوّل ٢٠١٣، إغتيل أحد أهمّ كوادر الحزب المهندس الشهيد حسان اللقيس أمام منزله في الضاحية الجنوبية لبيروت. وبحسب إسرائيل، كان يُدير وحدة الحرب الإلكترونيّة ضدّها، وكان المسؤول عن إرسال طائرة الإستطلاع "أيوب" التي حلّقت

فوق إسرائيل، قبل حوالى الشهرين من إغتياله. وتحليق الطائرة نفسه هو جزء من الحرب الباردة إذ أتى ردّاً على الخروق المتكرّرة لسلاح الجوّ الإسرائيلي للأراضي اللبنانية.

وفي ظروف الحرب غير المتكافئة وفي ظلّ التفوّق الجوي الإسرائيلي، وجد الحزب في القدرة الصاروخيّة المتنوّعة، الوسيلة الأنجع في المعركة. وتهديده باستهداف الجبهة الداخليّة الإسرائيليّة، أوجد نوعاً من "توازن الرعب"، أو "الردع المتبادل"، بينه وبين العدوّ. وكان العدوّ قد بدأ حرب تموز بعمليّة أسماها "الوزن النوعي" وهدفت إلى تدمير صواريخ "فجر" الإيرانيّة، لكنّه لم ينجح في تحقيق هدفه القاضي بتدمير ترسانة حزب الله من الصواريخ المتوسّطة والبعيدة المدى، وبعد إنتهاء الحرب عاد حزب الله وراكم قدرات صاروخيّة تفوق ما كان يمتلكه قبل الحرب بمرّات ورأت إسرائيل في ذلك تهديداً خطيراً لها. في المقابل ومن باب المقارنة تعمل إسرائيل في غزّة، في فترات متباعدة نسبيّاً، على شنّ حروب على حركة حماس لمنع تعاظم قدرتها، وتسمّي عمليّاتها هذه بـ"جزّ العشب". لكنّها لا تستطيع، حسبما يقدّر الجميع، إعتماد الإستراتيجيّة نفسها مع حزب الله نظراً لفداحة الخسائر التي ستتكبّدها. لذلك تبنّت إستراتيجيّات مختلفة تحت عناوين وإصطلاحات متعدّدة أبرزها:

١ ــ صدأ الصواريخ: هذا المصطلح أطلقه رئيس الأركان الإسرائيلي السابق، موشي يعلون، وتمّ تبنّيه بين العامين ٢٠٠٦ و٢٠٠٨. فحينها رأى الإسرائيليون أن أي مواجهة عسكريّة لن تُفضي إلى القضاء على حزب الله، ولذلك من الأفضل تركه يغرق في مشاكل السياسة الداخليّة اللبنانيّة، ومن بعد ذلك في الفتن الإقليميّة ممّا سيبعده عن مواجهة إسرائيل ويجعل من صواريخه خردة مع مرور الزمن، علماً بأنّ هذا الرأي يمكن إعتباره أيضاً بمثابة نوع من التفسير التبريري للعجز العسكري الحاصل بعد العام ٢٠٠٦ .

٢ــ عقيدة الضاحية: أطلقها غادي إيزنكوت، قائد المنطقة الشماليّة، في ٤ تشرين الاول ٢٠٠٨، ردّاً على تهديدات سماحة السيد نصر الله، خلال تأبينه الشهيد مغنية، وتعني شنّ حرب تغيّر وجه المنطقة، أي القيام بردّ غير متناسب على إطلاق أي صاروخ على الكيان الغاصب، وبتعميم الدمار الذي شهدته الضاحية الجنوبيّة لبيروت في حرب تموز ٢٠٠٦ على مختلف الأراضي اللبنانيّة.

٣ــ الردع المتبادل: في ١٤ آب ٢٠٠٩، أعلن سماحة السيد نصر الله معادلته الجديدة: "إذا قصفتم الضاحية فسنقصف تل أبيب". ثمّ في ١٦ شباط ٢٠١٠، تحدّى السيد نصر الله الإسرائيليين بأنّهم إذا دمّروا مبنى في الضاحية فسيدمّر أبنية في تل أبيب. وقد أتت هذه التصريحات لإعادة تفعيل معادلة الردع التي إختلّت مع عقيدة الضاحية وبالتزامن مع تقارير إسرائيليّة تحدّثت عن إمتلاك حزب الله (في حينه) أكثر من ٤٠ ألف صاروخ، بينها صواريخ ذات قوّة تدميريّة كبيرة من طراز "زلزال" و"M600"، وتستطيع الوصول إلى "غوش دان" (المنطقة التي تضمّ تل أبيب وجوارها).

أمام هذا الواقع أقرّ أيزنكوت، في ٢٤ أيار ٢٠١٠، بالحرب الباردة مع حزب الله وبالردع المتبادل، وفعّلت إسرائيل دفاعها السلبي عبر زيادة جهوزيّة الجبهة الداخليّة وعزّزت دفاعها الإيجابي المتمثّل بمنظومات إعتراض الصواريخ كالقبّة الحديديّة ونظامي حيتس وباتريوت.

السلاح الكاسر للتوازن

مع دخول حزب الله الحرب السوريّة، تخوّفت إسرائيل من أن يؤدّي تعزيز الحلف الإستراتيجي بين السيد نصر الله والدولة السوريّة إلى نقل أسلحة متطوّرة من سوريا إلى لبنان. وجرى الحديث تحديداً عن نوعين من الصواريخ "الكاسرة للتوازن": صاروخ "ياخونت" وهو صاروخ روسي بحري موجّه، مداه ٣٠٠ كلم ويسير بسرعةٍ كبيرةٍ تصل إلى ٧٥٠ متراً في الثانية ويستطيع التهرّب من الرادارات ليضرب السفن برأسٍ متفجّرٍ زنته ٢٠٠كلغ؛ وصاروخ "فاتح ١١٠" وهو صاروخ إيراني أرض- أرض موجّه يصل مداه إلى ٣٠٠ كلم وذو قدرة تدميريّة عالية. هكذا إرتسمت حدود لعبة جديدة وضعت إسرائيل من خلالها خطوطاً حمراً تقضي بمنع نقل أيّ أسلحة ثقيلة من سوريا إلى الأراضي اللبنانيّة. وهذه المرّة تحركت عسكرياً، فأغارت طائراتها على مواقع قرب دمشق مرتين، في أيار وتشرين الاول ٢٠١٣، قيل إنها استهدفت مخازن صواريخ "فاتح ١١٠" كانت ستنتقل إلى حزب الله. وفي شهر تموز أغارت على اللاذقية وتحدّثت التقارير عن إستهدافها شحنة من صواريخ "ياخونت".

لم يقم حزب الله بأيّ ردّ، وترسّخت قواعد إشتباك جديدة على الشكل التالي: ما دامت الغارات تستهدف الأراضي السورية فإن الردّ سيكون بالإستمرار في محاولة نقل الأسلحة النوعيّة. وتحدّثت تقارير إعلاميّة بعد ذلك عن وصول الـ"ياخونت" إلى لبنان بعد تفكيكه إلى أجزاء هرباً من الرقابة الإسرائيليّة. وفي آخر التقارير العسكريّة الإسرائيليّة يُحكى عن أنّ حزب الله صار يمتلك أكثر من ١٠٠ ألف صاروخ وربما ١٥٠ ألفاً، منها ٥ آلاف قادرة على الوصول إلى غوش دان. إلا أنّ شيئاً ما قد تغيّر حين أغارت إسرائيل على أحد مواقع الحزب على الحدود اللبنانية – السورية، في ٢٤ شباط ٢٠١٤. وقد رأى حزب الله في تلك الغارة محاولة لتغيير قواعد الإشتباك القائمة منذ بداية الأحداث السورية ونقلاً لميدان الصراع على بناء القدرة من الأراضي السورية إلى الأراضي اللبنانية. ولكي يعيد حزب الله رسم الحدود القديمة، أطلق صواريخ على موقع للجيش الإسرائيلي في جبل الشيخ. وبعدها بشهر، فجّر عبوة ناسفة في مزارع شبعا. وعندما فجّرت إسرائيل جهاز تنصّت زرعته داخل الأراضي اللبنانية، ممّا أودى بحياة أحد عناصر المقاومة، إستهدف الحزب بعبوة ناسفة متطوّرة، جنوداً إسرائيليين في مزارع شبعا.

الوضع القائم

في الوضع القائم يُجمِع المحلّلون على أنّ أيّ خطأ في حسابات أحد الطرفين عبر إساءة تقدير إستعداد الطرف الآخر لخوض معركة واسعة، سيؤدّي إلى حربٍ شاملة. فهل ستنهار قواعد الإشتباك بفعل عملٍ إسرائيليٍّ متهوّرٍ وغير مدروس كما يلزم داخل الأراضي اللبنانيّة في ظلّ الصراع الدائم على تفسير وتطبيق قواعد اللعبة. وعلى الرغم من التطمينات التي تنقلها جريدة يديعوت أحرونوت بأنّ إسرائيل لا تملك مصلحة في المبادرة لشنّ حرب في الشمال سواء في لبنان أو في سوريا، وبأنّ المؤشّرات في الأيام الأخيرة لا تدعو إلى القلق، فإنّ الجيش الإسرائيلي عاوَدَ الأسبوع الماضي تكثيف مناورات واسعة النّطاق شملت كل القطاعات والوحدات المعنيّة بالحرب في لبنان، وترافقت المناورات الضخمة مع تسريبات بأنّ أكثر من ٢٠٠ منزل في قرى جنوبيّة منها بلدات شقرا، محيبيب، عيترون، بنت جبيل ومارون الراس ستكون عرضة للتدمير، وأعقبتها تسريبات أخرى هي أنّ إسرائيل ستعمل في حال نشوب حرب على ترحيل مليون ونصف مليون لبناني من أرض الجنوب، وهو سيناريو شبيه بما سبق أن قامت به في قطاع

غزة عندما قرّرت تدمير أكثر من مئة قرية حدوديّة بغية التخلّص من السيف المسلّط على رقبتها والمتمثّل بـــ ١٠٠ ألف صاروخ من طراز قسّام وغيره من الصواريخ الإيرانيّة الصنّع.

من الواضح أنّ الإستراتيجيّة الإسرائيليّة المُعادية ستعتمد بالدرجة الأولى على تكتيكات هجوميّة ضـــدّ حزب الله مع الإحتفاظ بالإجراءات الدفاعيّة المُعتادة والتي تمّ تطويرها لحمايـــة المســـتوطنين. وبالتـــالي فالتحرّكات البرّيّة العميقة والخاطفة للمشاة والمصفّحات الإسرائيلية ستكون إحدى هذه المقاربـــات الفعّالـــة على أن يكون للقوّات الجويّة والمدفعيّة دور اليد الطولى التي ستستهدف آلاف الأماكن وفق بنك الأهـــداف الإسرائيلي. ويبدو أن مخطّطات تل أبيب تعمل لإرباكٍ متبادل على المستوى الداخلي مـــن خـــلال دفـــع اللبنانيين لإخلاء مدن بأكملها وتهجير مئات الآلاف من اللبنانيين. وقد تمّ وضع ســـيناريوات مختلفـــة لأي حرب مُقبلة بين إسرائيل وحزب الله على طول الحدود مع فلسطين المحتلّة، ولكن ما يؤخّر إنـــدلاع هـــذا القتال هو يقين الطرفين بأنّ الخسائر في الجانبين ستكون هائلة.

خاتمة

بعد أن أصبح حزب الله يمتلك خبرات واسعة في نوعيّات القتال، بعد تدخّله في الحرب الكونيّة علـــى سورية كطرفٍ أساسيّ، باتت إسرائيل تعبّر بشكلٍ دائمٍ عن هواجسها تجاه هذا التدخّل، خصوصاً في ظـــلّ تنامي قدرات الحزب البشريّة والعسكريّة والتقنيّة رغم الخسائر التي يتكبّدها.

ومن هنا لم تكفّ إسرائيل يوماً عن متابعة حركة الحزب التسلحيّة والتدريبيّة والوقوف عند جهوزيّته لأي حرب مُرتقبة معها، وما التقارير التي تجمعها عن وضع الحزب وتطوّره الدائم سوى مؤشّر واضـــح على نيّة تصعيد قد تلجأ إليها إسرائيل في غفلة من الزمن للحدّ من تطوّر قدراته ومقاومته ولفرض واقـــعٍ جديدٍ عنوانه "الأمن لإسرائيل فوق كل إعتبار".

هي حرب خفيّة ومقنّعة إذن بين حزب الله وإسرائيل جنّدت لها الأخيرة كلّ ما تملـــك مـــن شـــبكات وأجهزة تنصّت ومعدّات إلكترونيّة متطوّرة في سبيل العثور على معلومة ما حـــول تحرّكـــات المقاومـــة ومراكزها ومخازن أسلحتها ومنصّات صواريخها، بالإضافة طبعاً إلى عزمها المتواصل على معرفة أماكن

وجود كبار قادتها. واللافت أنّ هذا الإستنفار الإستخباراتي يواكبه إستنفار إعلامي يروّج لنجاحات حقّقتها إسرائيل، ليس فقط في ما يتعلّق بوصولها إلى تحديد بنك أهداف لضربه في حال شنّت عدواناً على لبنان، بل في إعلانها من حينٍ لآخر عن نجاحها في إحباط مخطّطات لحزب الله لتنفيذ عمليّات يستهدف فيها إسرائيل في مختلف أنحاء العالم، كإفريقيا وتركيا. وهذا النشاط الإستخباراتي الإسرائيلي يجب أن يوضع في إطار الفشل الذي وقعت فيه إسرائيل في حرب ٢٠٠٦، فهي إكتشفت وبنتيجة هذه الحرب أنّها لم تكن تعلم شيئاً عن ميدان المعركة وحيثيّاته التسليحيّة والتقنيّة، وبناءً عليه فهي تعمل على تحصين وضعها عبر التجسّس والتنصّت والإغتيال وإعادة بناء شبكات العملاء وما شابه. والحرب الأمنيّة الخفيّة بين إسرائيل وحزب الله لا تتوقّف، فإسرائيل عبر مناوراتها في الجولان وعلى الحدود الجنوبيّة اللبنانيّة، والمناورات التي تقوم بها بالإشتراك مع الولايات المتّحدة الأميركيّة، ومحاولات أخذ الدروس والعِبَر من حرب ٢٠٠٦ إنّما تصبّ ضمن إستعداداتها لحربٍ جديدة، والنجاح والفشل في الحرب المقبلة إنّما يتحدّدان في ساحة المعركة.

أخيراً في المبدأ، لا يمكن للكيان الصهيوني أن يخرج من أيِّ حربٍ مُقبلة كما كان عليه قبل الحرب، وقد تُشكّل أي حرب مُقبلة بداية تهدم أُسس وجود وإستمرار الكيان، حيث من المُفيد أن نتذكّر أنّ الأساس الذي قام عليه هذا الكيان الغاصب هو الهجرة غير الشرعيّة إلى فلسطين. هذا الأساس الذي تعرّض لهزّة كبيرة خلال عدوان ٢٠٠٦، حيث أجبرت صواريخ المقاومة حينها مليون ونصف المليون صهيوني على مغادرة مستوطناتهم إلى وسط فلسطين، ونزول باقي سكّان الشمال إلى الملاجئ طيلة أيّام الحرب الـ٣٣، مع وجود تقارير أكّدت مغادرة حوالي ١٥٠ ألف صهيوني لفلسطين المحتلّة إلى البلدان التي أتوا منها.

وإن كان هذا ما حصل سنة ٢٠٠٦ مع عددٍ قليلٍ من الصواريخ وعلى مناطق محدّدة وأغلبها صواريخ محدودة التأثير، فماذا يمكن أن يحصل مع سقوط آلاف الصواريخ المدمّرة على كامل الأراضي الفلسطينيّة المحتلّة، وخصوصاً في "تل أبيب" وضاحيتها "غوش دان" التي تضمّ أكثر من ٦٠% من الصهاينة، إضافةً إلى العدد الكبير من القتلى في حيفا ومحيطها الذي سيتجاوز الـ٢٠ ألف قتيل إذا ما تمّ إستهداف حاويات الأمونيا ومواد كيميائيّة أخرى.

المعادلات القائمة هي معادلات رعب بكلّ ما تعنيه الكلمة من معنى، وخصوصاً على الجانب الصهيوني الذي سيعيش فيه المستوطن من دون خدمات ومن دون إنتاج لفترةٍ ليست بالقصيرة على عكس اللبنانيين الذي إعتادوا هذا الوضع.

يدرك الإسرائيليون أنّ زمن الحروب الخاطفة قد ولّى، وقد شرح الإسرائيليون هذا في الوثيقة التي نشروها في آب ٢٠١٥، والتي حملت عنوان "إستراتيجيّة قوّات الدفاع الإسرائيليّة"، وهي المرّة الأولى التي ينشر فيها الجيش الإسرائيلي مثل هذه الوثيقة. وفي المقابل بدأ تنفيذ الخطّة الخمسيّة الجديدة للجيش الإسرائيلي، "الخطّة جدعون"، وهي الأولى منذ أن إنتهت الخطّة السابقة في العام ٢٠١١. وتشمل الخطّة تغييرات مهمّة في هيكليّة الجيش الإسرائيلي، والغالب أنّ العمل على تنفيذها سيؤجّل إحتمالات المواجهة الفوريّة، ولا سيّما أنّ إسرائيل تعتبر أنّ "حزب الله" منشغل بالكامل في الحرب السوريّة، وأنّ خطره وإن كان مُتعاظِماً إلاّ أنه ليس طارئاً، وبالتالي يمكن القول إنّ الحرب قريبة ولكنها ليست وشيكة.

وإذا كانت المعادلات بهذا الشكل، فهل سيكتفي الجانب الصهيوني بإصدار التقارير فيما حزب الله يُراكم الصواريخ والتجربة؟

لا أحد يستطيع الإجابة على هذا السؤال، فالحرب قد تحصل غداً وقد لا تحصل بسنوات لعدم توفّر المعطيات التي تُشير إلى الإحتمالين، خصوصاً أنّ الحروب قد تحصل لأسبابٍ ليست في الحسبان، فكيف إذا توفّر لها كل هذا الكم من الأسباب التي تحكم الصراع في المنطقة وخصوصاً بين الحزب وإسرائيل؟